جزء من قلبي

أجلس فوق قمة عالية في انتظار المد والمدد بعد انحسار بحر الحب وتعري صخور القاع. أغوص في أعماقي باحثة عن الحب والحنان التائه. أغوص وأغطس وأسبح ثم أبتسم، رائحة رأس وليدي، أشمها! كتفه الأيسر الذي يظهر من بين طيات ملابس العناية المركزة، رأيته وقبلته في أول يوم سمحوا لي أن أحمله وأرضعه! الرضعة الأولى وخدرها ومتعتها، أشعر بدفق اللبن! أشعر بالحب السائل! اليد الصغيرة التي تمسك على بقايا من الـ«التفافة» واللبن والوبر، أقبلها ثم أفتحها وأستنشق رحيقها!

أنظر أمامي، فأراه وكأنني أراه لأول مرة. رأسه الجميل على رقبته الصغيرة، يسير أمامي بنفس النظرة التي يذوب لها قلبي وجليده، ذراعاه تتحركان في بطء، ساقاه الصغيرتان، كم أنا أحبك! ذراعاه كجناحي الدجاجة، أنده عليه «أُزأُز»، «قرموشة»، «بطاطسية»، «قلب ماما»، أهجم عليه وأقبله. أقول له إنني أحبه! أشعر بالمد وكأنه الفيضان، لكني أعلم أن البحار لا تفيض. ليتني نهرًا جاريًا! ليتني شلالًا متدفقًا! أحتضنه! يضحك لي وعليَّ! أقبل رأسه ويديه وأشمه وكأنني أشحن بطارية الحب وطاقة العطاء!

جزء من قلبي يسير أمامي! جزء من قلبي يجلس بجانبي! جزء من قلبي يدفئ حضني! أحكي له عن حبي الذي بدأ قبل أن أراه وسيدوم مهما حدث. أقول له إنه «هدية ربنا» وأعنيها بكل جوارحي. أقول له إنني لم أكن أصلح أمًّا لأي طفل آخر. أقول له إن ربنا أعطاني فيه وبه كل ما تمنيت. يسألني عن مدى حبي له، أقول:

«بحبك قد الحاجات إللي نعرفها والحاجات إللي ما نعرفهاش، قد الحاجات إللي شفناها وإللي ما شفناهاش، قد الحاجات إللي أكلناها وإللي ما أكلناهاش».

يضحك، يقاطعني ويقول: بحبك قد اللمبة المحروقة!

نضحك معًا، هذا «سيم» بيني وبينه!

يسألني كثيرًا عن حياتي قبله وعن طفولتي، يعرف الكثير من أسراري وقصصي. أحكي له بصدق عن هزائمي وانتكاساتي، عن صداقاتي وخبراتي، عن بؤسي الذي لم أدركه إلا بعد أن أصبحت أمه وخبرت لأول مرة الحب غير المشروط والأمان والعطاء. في الغربة التامة عن عالمي الذي بنيته وألفته لسنوات عديدة، وجدت الوطن الحقيقي. كان عليَّ أن أتخلى عن كل شيء لأجد كل شيء.

يأتي لي بقصة أقرؤها له، أبتسم موافقة، يشترط عليَّ: «بس إوعي تزعقي!»

أتمنى أن يدوم المد ويغمره الحب قبل أن تنحسر المشاعر وتتعرى الصخور!

يحتضنني فجأة ويقول إنه يحبني حتى إنفينيتي، اللا نهاية!

هل شعرت د. «ماريا مونتيسوري» بالحب «حتى الإنفينيتي»؟ هل عانت مثلي من الجزر والمد؟ هل واجهت وحش الفقد القابع في أعماق محيط الحزن والذنب والندم؟ هل تخبط د. «سيرز» مثلي؟ هل جاهد نفسه كل يوم ليتقبل أولاده كما هم؟ الحب المشروط للأبناء هذا يجب أن يدرج في قائمة أمراض المناعة، كيف لنفسك أن تهاجم وترفض وتفترس «جزء منك»؟

أخاف زمهرير الشتاء وقيظ الصيف، فيهما تزداد انحسار المشاعر وتتعرى صخور القاع أكثر من الربيع والخريف. أراقب نفسي جيدًا. مع بداية الشتاء أمرض وأصاب بالكسل

والفتور ويلتهمني اليأس. تتكاثر الأفكار السوداء في رأسي وأحاربها بشم رائحة رأس طفلي. أتآكل في الشتاء، أزداد شيبًا، أطعم وحش الألم النفسي طعامًا كثيرًا عله يشبع ويبتعد، أزداد وزنًا، أتقوقع أكثر وأكثر، أغطي مرآتي، أعطي ظهري للحياة. أقلب صفحات النتيجة في انتظار منتصف أمشير. مثل سلحفاتي الصغيرة، أبدأ في الخروج من البيات الشتوي ببطء وهدوء. أنظر للسماء وأدرك أنني لم أمت بعد. يبدأ الدفء يدب في أوصالي وأبتسم في وهن لأشعة الشمس. أستعيد نشاطي وأبدأ في استعدادات التصالح مع مرآتي. تظهر نباتات خضراء صغيرة على أشجاري وأعلم أنها ستورق وتزهر قريبًا. أفرد ظهري المحني قليلًا كلما تخففت من طبقة من طبقات الملابس الثقيلة. يأتي الربيع وأزهر وأزدهر. يأتي معه عيد ميلاد «آدم» فنحتفل بفرصة جديدة للحب والأمومة والحياة.

لا أتنفس جيدًا في الرطوبة. يقل نشاطي مرة أخرى في الحر. تختبئ في غرفتنا المكيفة في انتظار مرور موجات الحر والرطوبة. أفقد أعصابي كثيرًا في الصيف وأتجنب الجدال والنقاش قدر المستطاع. يتحول لون الربيع الأخضر إلى درجة من درجات الأحمر الجهنمي، ويثور بركان الغضب الكامن في قاع المحيط مرة أخرى، قد ظننته خمل وانطفأ. تمر الموجات الحارة وتهب علينا نسمات الخريف البرتقالية. يأتي عيد ميلاد جديد لي وتأتي معه فرصة جديدة للوعي والارتقاء والتصالح مع النفس. أجدد وعودي لنفسي ولـ«آدم» ونحتفل بفترة نشاط أخرى، حتى يأتي الشتاء مرة أخرى وتسقط أوراق الحياة معها.

بالطبع هذه ليست طريقة تعليم الأطفال فصول العام في نهج المونتيسوري. لكن، في بيتنا، هذه هي قصة تعاقب الفصول التي أعرفها، ويعرفها «آدم»، جيدًا.